قصر في جهنم والخاسر الجميع:

المصرون على اجتثاث البعث يعملون على تدمير البلد واستمرار كسر العظم يجعل العراقيين يجتثون بعضهم بعضا

لا بوش ولا حكومة كرتونية لا القوة، ولا التناحر ولا مقاومة طائفية قادرة على انتشال البلد من كارثة

برهان الخطيب *

■ المشكلة في العراق قبل وبعد الاحتلال كانت وظلت بين أجنبي اصبح محتلا ووطنيين، بين وطنيين ووطنيين، بين وطنيين وغير وطنيين. بادر الأجنبي (على تخوم الألفين) لحلها بالقوة لتعريض صدام المجتمع الدولي لخطر بحربي الخليج، خاصة الثانية، واخرى على الأفق أخطر أنذر بها إسقاط برجي نيويورك قياسا وعقلية حاكم عراقي ما روضته انتخابات نزيهة ولا انتفاضة ولا مقاطعة وحصار، ما استمع لنبض العصر، ما تغيّر أو غيّر. ثم أخطأ الأجنبي فالمحتل في محاولة حل المشكلة، بالتعامل مع وطنيين تفاهموا معه نعم، لكن انتزع منهم جوهر وطنيتهم بفرض اجندته وخياراته عليهم، بتهديد باستبعاد عن المشاركة في الحل، بإغراءات، بغير ذلك، واضاع معظمهم بقيتها بإعلاء ذاتهم فوقها، هكذا غاب عن مشروع دمقرطة العراق حلم التغيير الوطني الذي حملته تلك القوى وغيرها، حتى الموجودة ضمن الحزب الحاكم، من وهن الى وهم، من انقلاب الى اضطراب، ويكاد يجهض كليا بعد نزف دم مستمر نصف قرن وأكثر.

الخاسر الجميع، الحالمون بالديمقراطية، الذين لو جابهوا وضعا أصعب في العراق رحلوا على الأرجح، الشئ يحسب بالخسارة والربح، في التأريخ شواهد، فيتنام، الصومال، بل وشمال العراق، انسحاب الاسبان والطليان. انسحاب لو اكتمل وضع العراق امام احتمالين، الانضمام لمشروع دولة اسلامية، وهذ غير مرجح لأن الأنظمة الوسط في المنطقة تستوعبه، الغرب يدعمها لا يسمح له بصعود، ومقاومة وطنية تعمل لملء الفراغ. الثاني مواجهة بين ايران والعرب. كلا الاحتمالين أفضل للأجنبي من نزف اقتصاده ودمه. يغري الانسحاب في النهاية بوش لقبوله بصيغة تحفظ وجهه. الخاسر ايضا الوطنيون، همهم الأول أن يكون حاكمهم منهم، تعمم تشورب تأورب أو تدكتر، أمنهم المهم وقيمهم، هذا يحمل في طياته عودة الى انجماد وشقاق داخلي وتوتر، خاصة لو رجحت كفة الحل السلفي، أي ما يضيع جهود الأجنبي، فيحرن في احتلاله، هكذا يتأجل الحل، تستمر الخسارة، ويتعقد الحال.

لا توجد مشكلة من غير حل، المهم كيف هو الحل، مَن يقوم به. كيف؟ بالقوة أو بالتفاهم. القوة رأينا عقدت وابعدت الحل مع الاخطاء والآثام المرتكبة بتفكيك الدولة والحزب الأساس وإلغاء المستقلين استقطابا وتهميشا بالمحاصصة ومن اطراف المشكلة حتى اصبحت معاصصة. التفاهم لا صيغة واضحة له حتى الآن، لأسباب ميدانية، داخلية، تفاقمت مع القتل، وأخرى خارجية، نابعة من رغبة للهيمنة على القرار الوطني. مَن يقوم به؟ القوة فشلت، إذن كل الاطرف وإلاّ انهاكها. تكميم أفواه يغذي التطرف.

زعم الديمقراطية العريضة اليوم في العراق المستوعبة حتى حرية القتل والنهب دون عقاب، ذلك تؤكده فضائح منها مستورة بكتمان وخوف وغيره، بعض تبعات كلام العراقي اليوم والنشر له وعنه القتل، تخريب بيته. المنفذ العدو وربما الصديق. العدو ليتخلص منك. والصديق، لو عارضته على خطأ، ليكسب من الرأي العام غضبا على عدوه عدوك. لا حاجة لذكاء ثاقب لمعرفة هذا، انظر نحو الاتجاه المعاكس تر المطلوب، يُنصح طفل حين يعبث أحدهم وراءه بأذنه، أمامك أجندة معلنة، لا تغفل عن الخفية. حتى الذي ليس له عدو وصديق ينتظره قتل، وإلاّ ما معنى سقوط عشرات العقول العراقية وتهديد وصلني، ذكي بطريقة عرضه غبي بعنونته! القتلة من كل الأصناف، تجمعهم الوضاعة، أسوأهم المقنع بنبل.

فوق فتوى القتل عند المتحمسين له وللتهجير مصلحة مضادة لهم تنم الدلائل، خلق بغداد غربية واخرى شرقية على غرار برلينين وبيروتين لا ينجح، خاصة عهد هندسة وراثية قد تغدو سياسية تنحو للأحسن. رغم حلم العيش في عالم مسالم يتوالد هذا القتل، ضرب هذا بذاك ثم ذاك بهذا، ليهنأ منتفعون في ملهى قصي. في مقهى عربي، تكلم عراقيان غريبان عن مشكلتهما، أكد الأول على دور الأجنبي فيها وصب شتائمه على مَن من غير مذهبه. قال الثاني: تفاهم معه. صاح الأول: بل يستحق القتل. الثاني رد: إذن تنفذ بغير وعي ما يتمناه عدوك حسب دعواك! قال الأول: اعيش مع الاجنبي ولا اعيش مع ذاك. الثاني: هذا يعني التقسيم. الأول: ليكن. الثاني: تتكلم عن أمة ولا تحرص على ديرة منها. التعايش مع القريب قبل البعيد ضمانة أمن. كادت تنشب معركة بينهما.

المشكلة والحل

بموازاته ابناء منطقة يتراصون مقابل المحتل. معادلة جديدة. ما نتيجتها؟ المحتلون موَحَّدون تقريبا، لا فرق كبيرا بين جمهوري وديمقراطي. ابناء العراق سالب وموجب حاليا، بمشروع سلفي نقطة قوتهم وضعفهم في آن، قوة لأنه يوحدهم، ضعف لخلقه عند المحتل حافزا لمناهضتهم وتدميرهم، لديه الوسائل والقوة والحجة لذلك. بالسالب والموجب الطائفيين يلغي ابناء المنطقة بعضهما بعضا، هكذا تكون الغلبة أرجح لمحتل، وجلاؤه يفاقم اقتتالهم. لكن الجزائر طردت بمتدينيها فرنسا، سلمت للعلمانيين بعد ذلك، يمكن تكرار الصيغة في العراق وأيضا لبنان، هكذا ترك علمانيو العراق ومنهم بعثيون مقاومون، بعضهم التحى، والسلفيون يأخذون الصدارة. امريكا لا تمانع في النهاية من التفاهم مع جهة تضمن لها الاستقرار والمصالح. تأهيل البعثيين إشارة.

المشكلة والحل من جميع الأطراف، أضيف: بعضها بقي على طرف المشكلة، ما ساهم في حلها، تمسكا بإغراء كل شئ لي أو لا أريد شيئا، صدام الأمس، اليوم غيره. قيادة حزبي الاكراد بتصريحات مهددة وممهدة لانفصال منبع أساس للمشكلة العراقية، تهديد يصعّد التطرف، حسنا اعلن بوش رفضه تقسيم البلاد، ليت الخفي كالمعلن، فيأمن الوطنيون وجيرانهم حينا على وحدتها، خلاف قيادة شوفينية تتهم غيرها بالشوفينية لو نطق بحقائق تدينها. بعض التأريخ يزيّف، ناس يخدعون، حتى لتظن ما عاد للتأريخ غير احتقاره، يتعرف عاشق معرفة على حقيقة فإذا هو يُسفه أو يُقتل من أعدائها. الحب أنواع أخطرها حب الحقيقة. أحد الأخوة الأكراد رجاني خائفا الكتابة عن انهم لا يرغبون الانفصال، يتعرضون لضغط من جماعتهم عند تبيان رأيهم. من أقرب معارفي كرد احتجبوا تكريسا لانفصال.

بعد ثورة 14 تموز 58 لم تسجل الشرطة العراقية اسابيع مخالفة، الناس من كل الطوائف والميول شعروا تلك الأيام انهم أخوة وملائكة. الزعيم قاسم عمل حسنا لقادة كرد وأعادهم من الخارج، تحالفوا مع الشيوعيين ضد البعثيين، أثيرت فتنة كركوك وألبست كل رأس، هكذا بدأ بعثيون بعد تعرض لأنواع المضايقات والتسفيه بتصفية شيوعيين. بعد عامين تحالف قادة الكرد مع البعثيين لاسقاط قاسم وقتله مع جماعته وشيوعيين. ثم انقلبوا على البعثيين وأثاروا الحرب في الشمال مرة أخرى. فتحالفوا مع الشيوعيين وقتلوا من كوادرهم. جاؤا بالاجنبي الى الشمال، غادرهم. اصبحت الآية: المشكلة موجودة دائما، الحل بالفدرالية بل بكونفدرالية. المنتظر ابتلاع العملية السياسية، تقرير بيكر هاملتون المتزن وقت تهتك لا يملأ برميلين، إذن غير كاف، هكذا تبقى المشكلة شاخصة حتى يقال بعد جيل أو أقل الحل بالانفصال. فككت يوغسلافيا، فكك الاتحاد السوفياتي، المنظومة الاشتراكية، تفكيك العراق على الافق، وغدا تركيا وايران وربما باكستان وأبعد لو تفاقمت الأخطاء.

بدل تغييرات ديمقراطية حقيقية في المنطقة ببرامج سياسية تتصدى للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية فيها، مهد التطرف، نرى دعوات التفكيك والاستخدام المفرط للقوة، النتيجة تصاعد النزعات المتطرفة فذبح الديمقراطية. قد يقال: وضع امصار يوغسلافيا وروسيا السابقة افضل الآن، دعنا من الثمن. هذا مشكوك فيه. ووضع العراقي بالتقسيم لا يكون افضل، لا ماديا ولا روحيا، تنوعه ووجوده حصيلة عصور، التقسيم يمزق هويته التأريخية، يمحي العراقي والعراق، لا يرضاه عراقي شريف.

العالم يتقارب، أوربا اتحدت، آسيا تتفاهم، الاكراد وغيرهم يكونون جزء من العالم الجديد من داخل المنطقة، لا بالقفز منها. العمل على الانفصال بدفع من أنانيين يعقد الوضع على الجميع، لذلك يجب تجريم الدعوات الانفصالية. تمثال غودي يتذكره كثيرون، حاكم لكش، رب البشرية، منه كلمة غود، الرب، على يديه أمانة الرافدين ومنابعهما، لاحظ تفاصيل التمثال، النهر الطويل الفرات على يمينه، على يساره دجلة، على من كتب الدستور تثبيت هذا، لا النقل بعمى عن دساتير اجنبية، المتاحف ذاكرة الامة، نعم التأريخ غير مقدس، إنما هو اساس عملي، يُبنى عليه. المجنون يعيش بلا ذاكرة، بعودة الذاكرة يعود الرشد، العراقي فقد صوابه تحت وطأة لكمة، استعادته لا زالت ممكنة.

الوحدة الوطنية لا تكفي، المطلوب ايضا برنامج للوحدة الوطنية، يقابل مشروع الاحتلال إذا أصر على تكريس المحاصصة والطائفية بدل بناء الديمقراطية كما وعد. لما يكون البرنامج سلفيا يفشل في دعوته للرحيل، يزيده عنادا ومواجهة، حرصا على مدنيته، وله حق هنا. لو نمت السلفية مستقبلا هدده خطر. إذن يجب ابتكار برنامج للقوى الوطنية يحفظ وحدتها ولا يؤلب عليها الغريب. الأفكار السابقة أوصلت الى المأزق الحالي، المطلوب أفكار جديدة، ما هي؟ أولا التخلي عن فكرة دولة الفيدرالية الطائفية أو الدينية او العرقية، لا ؟ إذن خسارة الوطن محتومة، ليس لقوة المحتل حصرا، بل لأن داخل القوى الوطنية جزء لا يريد ولا يحتمل الدولة السلفية. لا يمكن إلقاء ذلك الجزء خارج التأريخ، كما لا يمكن إلقاء القوى السلفية خارج الجغرافيا. إذن المشروع الجديد حتمي للوطنيين لو أرادوا البقاء. ما هو؟ ثمة خياران، التقسيم المرفوض قد يبدو حلا، أو المشروع الجديد الذي يذيب الأجزاء في الكل. نظريا له صياغات عديدة، مصالحة، خارطة طريق، مؤتمر وطني، مؤتمر عالمي، إلخ، التسميات تشوش، المطلوب توضيح الصورة، الانتقال من الورق والحاسوب الى الأرض، الأرض هي التي تنبت الحل أخيرا. ميثاق الشيخ المؤيد خطوة الى الامام.

تحديث الواقع السياسي

لأعداء البعث مثلا التخلي عن الاجتثاث، ولأعداء القادمين من الخارج نبذ عدائهم لهم، وهؤلاء نبذ تبعية لأجنبي، وللانفصاليين نبذ نزعتهم، بتعديلات على الدستور تثبت الحقوق والواجبات، وللبعثيين نبذ العنف والاتفاق. مقاومة حتى رمي العدو خارج الحدود جرح على جرح.

الوطنية الحقة عدوة للتطرف. ولأن المشكلة العراقية متصلة بمشاكل الجوار، الايراني والفلسطيني، يفعل المجتمع الدولي خيرا بالضغط لإعادة الحقوق وتسوية الوضع النووي في المنطقة. ليس في مصلحة العراق دولة نووية جواره أو قربه، هو لا يملك حتى دعوة شبابه للخدمة الالزامية. تحديث الواقع السياسي العراقي بتقارب أساس الحل، خلافه يرفض المحتل الرحيل وتطول معاناة الجميع.

المشكلة بين العراقيين اصعب مما هي بينهم وبين محتل، عدم تفاهم القوى الوطنية على حل يعجزها عن التفاهم معه وطلب الجلاء، ما يبقيه مستوفزا، راغبا في إنجاح وفرض حلوله. لو تم الحصول على الاستقلال الكامل بالتحديث ينتهي النظام العالمي الجديد الذي بدأ من العراق، يبدأ عهد كلٍّ وبيته.

إنكار الواقع السياسي كالذوبان فيه تماما، كلاهما هرب منه أو فيه، الأسمى معالجته لصالح مسيرة وطنية إنسانية عامة، لا الدوران تلقائيا مع دوامته المتولدة من اصطدام أهواء ومصالح تغلّب المادة على الروح. صراع بين مادية ومثالية نعيش؟ اتمنى بين مادية متنورة ومادية سوقية، كي لا نستبدل الواقع بأوهام، قد يجعل هذا وضعنا الإنساني إنسانيا بحق، لا حيونة. الحيونة تجدها كالانسانية الحقة في أي خندق، إذن يجب مغادرة الخنادق القديمة وتأسيس خنادق جديدة، أقصد هنا ثقافة حزبية جديدة.

ثمة تفاعل وتواصل عادة بين ثقافة حزب وأخرى على ساحة، إلاّ الساحة العراقية، كل حزب نسي البحر العريض الذي يمخر فيه مع غيره وانزوى على سفينته، كأنها البحر والعالم، لا يغير خط سيره لو احاطته الزوابع والأعاصير، على هذه حرف دربها عنه رأيه، النتيجة تبعثر وهلاك السفن. الاحزاب الطائفية والعرقية ليست احزابا سياسية، بل خادمة سياسات فوقها، تستخدمها لتحقيق أهدافها. نقيض ثقافتها الانعزالية هناك في التوق العراقي المتنوع ثقافة أخرى، ذات اهداف واقعية انسانية، متسامية فوق بذاءات الواقع. للأديب هنا دور، برؤى التحرر الحقيقي والرأي الحصيف يخدم السياسة حين يتقدمها، لا يسير خلفها كتابع فعله حتى اليوم، ذائبا في دولة أو حزب. نحن في المشكلة الكبرى للعراق، شتم أو قتل هذا الطرف أو ذاك لا يحلها، ولا الصياح هذا عميل أو ذاك ارهابي، المطلوب حلول واقعية لمشكلة عمرها أكثر من نصف قرن، لم تبدأ بالاحتلال.

الدفاع عن المصالح الخاصة قد يؤدي الى تدميرها اذا لم يتلاءم مع الصالح العام، هذا اكبر. تكوّن الاحزاب على اساس طائفي او عرقي في ظرف انتهى خرب العراق، ضروري حل الاحزاب الحالية وميليشياتها وتأسيس احزاب ببرامج وطنية سياسية، تضع مصلحة العراق فوق مصلحة الجزء. هذا في الداخل. في الخارج تسرّع مشاركة المجتمع الدولي حل مشكلة الفلسطينيين. الاستقرار يرفع دول المنطقة إلى مكانة مرموقة. الجميع في عالم يخضعون لنفس المؤثرات. كما آن أوان الاهتمام بالبيئة المشتركة قبل تحول الأرض الى مزبلة ومستشفى كبير. بتضامن البشر يمكن جعل الأرض جنة. البعض تبنى سياسة التعرض الدائم لغيره حماية نفسه، قد ينجح في هذا الى أمد لكن على المدى البعيد يأتيه الصدى لا يشنف اذنه. مشاكل اليوم متداخلة. عدم الاعتراف بهذا يسوّف الحل. ارض العراق ومنطقتنا تثمر الحب اكثر من الكراهية، ابتعد في أرجاء الوطن العربي وتكلم مع مَن في المقاهي والشوارع تر قوة الصلات بين الناس وروعتهم، العرب والاكراد واليهود والتركمان والارمن وبقية المسيحيين والصابئة وغيرهم عاشوا متجاورين متعاطفين دون مشاكل، فماذا حدث لنسمع عن هذا الضرب النازل في الجميع؟ واضح ثمة مَن يؤلب أحدهم على الآخر، من هو؟ ليس عراقيا أو هو عراقي جاهل أو متكسب من هذا.

مشروعان أمام العراقيين

مشروعان أمام العراقيين، اجنبي يزن اموره بالمثقال مستوعبا تقرير بيكر ـ هاملتون في النهاية، ووطني بلا صيغة غير ضرورة التقاء الحكومة والمقاومة على طريق الالتقاء لاحقا بالأول لتسوير وتسيير الجلاء. نضج الثاني على وسائل الاعلام مرحلة لنهوضه على الأرض. لا بوش ولا حكومة كرتونية، لا القوة، ولا التناحر، لا مقاومة طائفية، بل الشعب العراقي برمته ينتشل بلده من الكارثة. بالتفاهم وتغليب الوطنية على الطائفية. شباب الانترنت يتناقل: نعم أموت لكن تسلم ياعراق.

قد يبدو لمقاومة لا دور لامريكا في حل المشكلة العراقية، لأنها صانعة المشكلة، إنما لها دور، هي قادرة على الضغط على قادة حزبي الاكراد، وبالتالي نزع فتيل أساس. بعض الحل في يدها، لا الحل الكامل. المقاومة موجودة، وأمريكا موجودة، ولن يفرض أي منهما حلا على الاخر. حكومة فترة احتلال قد تنجح أن تكون وسيطا بينهما. الوطنية القاسم المشترك للغالبية، أساس الحل، لا الطائفية ولا نزعة انفصال، ولا ديمقراطية بلا ضفاف، مع احترام مصالح الجزء والكل. ضمان السلام في هذه المنطقة لامريكا وحلفائها اجدى من تقسيمها وتثويرها.

يقال ورقة العرب والاتراك بيد امريكا، مع اوراق اخرى تلعبها ضد ايران، ولا ورقة في يد العرب، العراق ورقة يتنازعها الامريكان والايرانيون. رأيي: لا. العراق كدولة ورقة حاليا، في يده لا شئ، نعم. لكن هذه الورقة لا تنفع امريكا ولا ايران، فلا امريكا تتخلى عنها مقابل ملف ايران النووي، ولا ايران تتخلى عن ملفها النووي مقابل لا شئ، هذا اذا تنازلت عنه يوما مقابل اي شئ. اذن تمزق الورقة نصفا بكل يد؟ محتمل، إذا لم ينتبه العراقيون ويوقفوا بمصالحة حقيقية اقتتالهم. طرحوا (الجوكر) السعودي على الطاولة، مقابل كل اوراق ايران: نتدخل، اذا خرجت امريكا من العراق. بمعنى آخر تحاربوا ايها العرب والايرانيون، ودعونا نحن الغربيين نتفرج، طالما لا تجيدون اللعب معنا، كما تحارب في الامس الالمان والروس، فانتهينا من لعب الهتلرية، ثم من لعب السوفيتية، كما تحارب العرب والترك، كما تحارب العراق وايران، حتى أفلس الجميع في النتيجة أمام مدير اللعب، الغلبة أخيرا لنا، نحن الديمقراطيات، اصحاب الكروش بل العقول الذين نحب حلبات الملاكمة والمصارعة إذا مللنا من طاولات اللعب.

حين تقول «لا» ترفض ان تكون ورقة. أمام العراقي الملمة اوراقه الخاصة. ليحمل كلٌ اوراقه. لقد أسقط البعثيين العراقيين دكتاتورهم، وسقطت بقية منهم لتغليبهم العشائري والقومي على الوطني، وسقط الشيوعيون لتغليبهم الأممي على الوطني، وسوف يسقط متطرفو الشيعة والسنة لو استمروا بتغليب الطائفي على الوطني. اوربا خسرت بالحرب الثانية رافعة أوراق الإقاليم وكسبت بعدها برفع الورقة الرابحة، وطنيتها القارية. الوطنيون من كل الطوائف والقوميات حصن الوطن الحقيقي. الصين الشيوعية تقترب بنظامها الجديد الى الصين الوطنية في تايوان، تتحول شيوعيتها الى وطنية خاصة بها. سورية ركنت البعث جانبا وتمسكت بوطنيتها، سر نجاحها الداخلي اليوم، وتنجح اكثر في الخارج بانسجامها مع أوربا. سورية تختلف عن ايران، لا ملف نوويا لديها يثير حفيظة، ومجتمعها بتنوعه، تحرره ومحافظته، لا يختلف كثيرا عن المجتمعات الاوربية. الفساد الاداري والمحسوبية شأن داخلي لا تخلو منهما حتى مناطق نظيفة. يبقى على إيران وأمريكا حل خلافهما من غير اتخاذ العراق طاولة أو ورقة لعب. يهتم كلٌ ببيته ونحصل على مدنية متآخية، تقسيم المدنية الى غيتوات نتيجته عوام وأغوات وبيوت بائسة.

حقائق الارض ابقى من غيرها، وكان لها أن تزهر في العراق بالنعم بدل ان تدلهم باليباب لو سقيت بذور الديمقراطية فيها بأيدي أبنائها الخلص من ماء الرافدين لا بأيدي لصوص من زيت دبابات ونفط مسروق.

موقف هيئة علماء المسلمين، الشيخ الحكيم حارث الضاري، وطني. انزلاق مرجع ديني نحو الطائفية نهاية له وتغذية للكارثة. الطائفة موجودة نعم، بالتزامها الوطني لا تكون طائفية، بل ويتعاطف معها ابناء الطائفة المقابلة، هكذا ينشأ الالتحام الوطني، خاصة أمام تهديد خارجي نجح لإثرة دكتاتور نفسه على وطنه. عدوان 56 الثلاثي استنهض الشيعة والسنة والمسيحيين مع وجود فكر نيّر فطردوا المحتل. الاحتلال حتى اليوم خسر من جنوده، والشعب من افراده، اكثر. ولا نتيجة. الظلام ساد لفساد وغياب مصابيح العقل.

شقاق العراق اليوم سياسي لا طائفي، بالاعلام يطرح طائفيا، جهلة ينساقون، النتيجة يتعقد الوضع لاهل البلد وللمحتل، لو استعر القتال لا سمح العقل، ولا أقول لا سمح الله لأنه يسمح رأينا بقتل العراقيين والفلسطينيين وموت جياع افريقيا دون حساب، تلتهب المنطقة برمتها. نعم جهلة ومنتفعون، من شيعة أو سنة، من اهل البلد أو غيره، يروجون لحرب اهلية او طائفية. عروة الناجين الوثقى الولاء للوطن، لأنه المشترك العام، ما عداه أمور شخصية، لكل الحق في تصورها كما شاء، هي القاسم المدمر لبشرٍ لو تأجج خلاف عليها. يجب الاعلان لعودة الأهل المهجرين الى بيوتهم.

تحت إشراف أجنبي همشت العملية السياسية الوطنيين الحقيقيين، هكذا غرقت بالدم، بأخطائها، انتشالها أرى لو لم يفت الوقت بسن قانون يجيز الاحزاب على أساس البرنامج السياسي الوطني، ضمنا البعث تحت اي مسمى، شرط وقف عنفهم ووعد منهم بعدم ملاحقة سوى اللصوص قضائيا لو فازوا بانتخابات قادمة. حزب البعث ضحية لصدام مثل غيره من الاحزاب التي اضطهدت، يرافق ذلك وضع المالكي يده على الدفاع والداخلية، مع استعداد حقيقي عند الجميع لتسليم السلطة لمجموعة الفائزين، حل البرلمان والاحزاب الحالية، إعادة اصطفاف القوى الوطنية في احزاب جديدة تختفي من واجهاتها الوجوه المشبوهة، إجراء انتخابات نيابية عامة تحت اشراف الجامعة العربية والأمم المتحدة، فانتخاب الرئيس الجديد، فالمطالبة برحيل المحتل، مع توجيه الشكر له على الخراب الذي انزله في العراق، للديمقراطية ثمن على أي حال. اوربا ايضا فاتبحت قبل استقرارها في نظامها الديمقراطي.

الدومينو العربية

خروج الامريكان قبل اعادة صياغة الحياة السياسية العراقية على اساس مرحلة تصالح جديدة قد يكون شبيها بخروج الانكليز من فلسطين وما عقبه من قتال وكارثة. تأمين وجود الجميع باتفاق خطوة نحو الاستقرار، خلاف ذلك استمرار النزاع والخسارات للجميع. القوة لا تجلب الحل، لكن لا مناص عن القوة لاشاعة الاستقرار، قوة القرار السياسي قبل الطلقة الدفاعية أو الهجومية، القرار الجمعي الوطني، لا الخارجي حسب، ولا الداخلي الفئوي. الجامعة والأمم إشراف. للبعثي والكردي وغيرهما كبقية الوطنيين الحق في كل شئ شرط التخلي عن العنف والإكراه اللذين أوصلا العراق إلى الكارثة. فكر البعثي على أي حال اقرب الى الغربي من فكر الشيوعي والديني المتحالفين مع الغرب اليوم. التخلي عن دعم الاجنبي ضرورة لهندسة الحياة السياسية داخليا وتركها تنهج صحيحا. هكذا تندرج قوى التغيير القديمة والجديدة في الصف الوطني، في مرحلة جديدة من العملية السياسية، أو قل عملية سياسية جديدة، تحفظ وجه الغرب والبعث (اسمع جدتي تتنهد: يا ريت يا برهان يسمعوا كلامك ويصطفوا ونخلص من شرهما معا) عملية يؤديها أبناء العراق الغيارى على استقلاله بإشراف عربي ودولي من غير محتل.

الخارج عقد مشكلة الداخل، وهي بسيطة تجريديا، دعوا الثانوي، ايا كان طائفيا أو غيره وتمسكوا بالرئيسي، الوطني المحدَّث. طبعا هناك ثروات أعين الجميع عليها، مراقبة الاداء الوطني من مجلس عراقيين نزيهين والجامعة والأمم تساهم في تثبيت الاستقرار.

المصرون على اجتثاث البعث يعملون بحس غير مرهف في تدمير البلد. قانون الاجتثاث لا يختلف في الجوهر عن بيان رقم 13 الذي اصدره بعثيو 63 لإبادة بعض خصومهم وقسموا به ظهر القوى الوطنية. الاستمرار على كسر العظم يجعل العراقيين يجتثون بعضهم بعضا حتى يبقى آخر وطني يواجه المحتلين والارهابيين وحيدا، الأخطاء تفاقم الإرهاب، معلوم تُتهم أنظمة (وطنية) قامت في منطقتنا بعد الاستقلال الأول بأنها وراء خراب بلداننا، لاستئثارها بالسلطة، لحجب معارضتها الساعية لتغيير ديمقراطي عنها. لهذا أرى الوطنية والديمقراطية متلازمتين.

ما أمام العراقي اليوم لينجى غير جعل المستحيل ممكنا، غير المحدود محدودا، والحلم واقعا. المسؤولية على كل فرد، الناخب قبل المنتخَب. استقلالية المثقف لا تكفي، المطلوب استقلالية الجميع. الوطن في خطر يا ناس. الوطن يحترق. بيوتنا تهدم وتستباح ممن لا ضمير لهم ولا وجدان.

العراق ملتقى الاقوام منذ فجر التأريخ ولن يكون لفرقتها. أوربا دخلت المستقبل موحدة، العراق لا يدخله مهشما ولا مهمشا، الأفكار الجديدة في الثقافة ومنها السياسة نبراس جامع للمحافظة والتحرر، التطرف والتقوقع فيهما مرفوضان من المجتمع الدولي ومن القوى الفتية الداخلية، هكذا لا يكون الوطني عنصر استفزاز لغريب، ولا غريبا بين اهله.

قوى جديدة للمعارضة تنمو، يحاول اجنبي وضْع يده عليها أو يتجاهلها، وضَعها على غالبية السابقة بحرب 2003 وفقدت مصداقيتها حين شتت القرار الوطني، العراق عاد إلى نقطة صفر، إذا ظل المتفاهمون مع الاجنبي يصرون على سلامة العملية السياسية واستخدام القوة بدل التفاهم مع ابناء بلدهم الرافضين لها، واصر هؤلاء على الغاء طاقم الحكم، يبقى العراقي يراوح في بركة دم، يجب أن يقبل كلا الطرفين بالآخر في صيغة ما، أو انتقلت المشكلة الى صعيد اعلى أعقد.

المصالحة تبدأ باعتذار الجميع للجميع، من الملكيين للشعب على اطلاق النار على سجناء سياسيين وقتلهم واعدام بعضهم واهمالهم الشعب. من الجمهوريين لهم على ثورة 14 تموز وقتلهم العائلة المالكة. من الشيوعيين للشعب على رفع الفيدرالية فشقه وخضوعهم لسوفييت داعمين لتمرد الشمال. من البعثيين والقوميين وقادة الحزبين الكرديين للشعب على اغتيال قاسم وجماعته. ومن البعثيين على قتل اكراد وشيعة. ومن الحكم بعد 2003 والمحتل للشعب على تفكيكه الدولة. مآسي العراق لأنه عاش دولة بلا قانون. ليكن ثمة صرح عام لكل الشهداء، من كل الاحزاب والطوائف، يخلد كل القتلى، هكذا يتذكر الجميع حماقة بعض العراقيين في القرن العشرين وعلى تخومه، تجنب تكرارها باحتقار الوطنية الديمقراطية النقية والقانون.

في هذا السياق يبدو تصرف الكتلة الصدرية معقولا بطلبهم من المالكي عدم لقاء بوش، لكن إذا كان هذا يقود إلى حل سلفي فهو العودة إلى نقطة الصفر، أو ليكن التحديث كما يأمل السيد نصر الله حين يتخلى عن علم حزبه ويرفع علم وطنه لبنان، أتمنى أن يستثمر شجاعته ويضع عليه بدل عباءته بدلة عصرية أوربية بل وطنية، ليقنع المجتمع الدولي في الأقل أنه طالب حق. الصدر ينتظره خيار صعب، وصولا إلى كتلة رافضة لوضع لا يطاق، لو انضمت اليها الكتلة الحكومية لا يبقى للادارة الامريكية غير التعامل معها. التعامل مع جهة لا ترضاها لكنها تقدم حلا أفضل من جهة مذعنة لكنها لا تقدم حلا.

الديمقراطيون يهُزمون بالديمقراطية. والمتعنفون بالعنف.

معارضات الأمصار فاتحة عيونها، الدومينو العربية مهددة بتداع، تحتضن الأنظمة العربية تطلعات معارضاتها يعود زمان الوصل، ولو خففت هذه من غلوائها قطعت نصف الطريق إلى الحلم، دولة غير وطنية ديمقراطية عقبة أمام تفتح قوى الداخل، مرفوضة من الخارج، هكذا يستمر التدخل إلى عمق المنطقة. يتسع خطر مواجهة في العراق ولبنان بل أوسع. الجديد فيها، عن مواجهة قوى اليسار الستيني لامريكا وانظمة عربية، ان السابقة كانت عزلاء (عدا فتح التي روحها في بيت المال و رجحت على الجبهة الشعبية الأفقر) لا على غرار معارضة اليوم، مسلحة هذه هنا وهناك، شبه يمينية، مقرورة جدا من فشل حل مشاكل المنطقة، لو التقت ريحها بريح دافئة هابة من امريكا اللاتينية فإن إعصارا جديدا لا أسم له قد يرتفع.

احتمال تصاعد حركة تحرر عربي اسلامي وارد. ضربة اجهاضية لها في ايران وسورية نقيض الرغبة في حلول سلمية معلنة بأوراق بيكر تزيد التطرف والعنف على نطاق اوسع.

العقل والضمير ينوبان أحيانا عن قانون ودين، لو راقب كل منها تطبيقات الآخر لا تنحرف بفساد. الفصل بينها ضروري، يقوّم سلوك انسان ودولة، دولة سمها فاضلة، متنورة، أي شئ، لكن لا علمانية، كي لا يزعل اهلنا المغالون في مظاهر التدين، هكذا أيضا يترسخ القانون والدين مؤسسات ومكانة في روح المواطن ومجاله الحيوي الدولة.

الحل يبقى بيد العراقيين، ليس بالركض الى وراء أو أمام، لا جمهورية اسلامية، لا حكم حزب واحد، ولا ديمقراطية فنطازية، بل وطنية ديمقراطية، هي النجم الهادي في هذا الظلام، افتراضية الان على ورق وشاشة حاسوب، بانتخابات مبكرة نزيهة يمكن أن نراها على الأرض، افضل من فوضى قد تلجئ حتى كفرة لاختطاف حجاج، لمقايضتهم بقصر مكيف في جهنم أو مكان في الفردوس، وقت لا تعود الدنيا صالحة لأحد، ضمنا قصور المنطقة الخضراء.

* روائي وقاص من العراق